◆ إشراف : أمنية فهمى
◆ society@elbadeel.net

مشهد من الجسر

خيرى شلبى

أكل العيال

-1-

مع التكبيرة الأخيرة فى أذان الفجر تكون جارتنا أم هبة قد صحت من نومها الخفيف الخاطف، تعبر الصالة الضيقة المزدحمة بكنبة بلدى منجدة بشلتة ومسندين، وترابيزة من الصاج من النوع الذى يطوى وينفرد لكى يذاكر عليها عيالها السبعة، وماكينة خياطة عتيقة تسترزق من ورائها بترميم وإصلاح الملابس القديمة وتقييفها نظير قروش من زبائنها- جيرانها- سكان حارة الوطاويط فى منشية ناصر. نسمع صوتها وهى تسب العيشة واللى عايشنها، فنعرف أنها دخلت إلى حوض المياه متعشمة أن يكون سرسوب الحنفية المفتوحة من صلاة المغرب قد ملأ البستلة فإذا بها لا تجد نقطة ماء واحدة تتوضأ بها لصلاة الفجر، تماما مثلما حدث عندنا وعند كل الجيران. دقائق معدودة ونسمع صوت باب شقتها ينفتح ثم ينغلق. نتابع صوت خطواتها وهى تمشى تحت شبابيكنا، فنعرف أنها حملت البستلة على رأسها وهرولت بها إلى حنفية الصدقة قرب مزلقان منشية ناصر، وأنها تحمل بيديها جردلين كبيرين، لتعود بعد حوالى ثلث ساعة محملة بالماء المكرر، كالبهلوان تهبط على قرافيصها لتتمكن من عبور عتبة البيت ذات السقف الواطئ حتى لا تصطدم به البستلة. عند باب شقتها تهبط مرة أخرى واضعة أحد الجردلين على الأرض لتشد بيدها المفتاح من سيالتها، تفتح الباب.. عندئذ تكون ابنتها الكبرى هبة فى انتظارها فى فتحة الباب حيث تعاونها فى إنزال البستلة إلى الأرض ثم تحملها وتدخل بها عفشة المياه، ومن ورائها أمها حاملة الجردلين. فى الحال تشمر ذراعيها وتقعد على أرض الكنيف، وهبة تغرف بالكوز من الجردل وتصب عليها حتى تتوضأ فى لمح البصر، تسحب السجادة المتآكلة الأطراف من فوق مسند الكنبة، تفردها على الأرض فى اتجاه القبلة، تقيم صلاة الصبح. على صوت قراءتها للفاتحة وقل هو الله أحد- حيث لا تحفظ من سور القرآن الكريم سواهما- يصحو زوجها الشقيان الأسطى محروس السواق.

ابنتها الكبرى هبة باسم الله ما شاء الله أصبحت عروسا ذات شخصية تصد عنها صياع منشية ناصر، هى الآن فى دبلوم التجارة، وهى ذراعها اليمنى، تصحو قبل إخوتها لتساعد أمها، تشعل البوتجاز النقال تضع سخان الشاى، فإلى أن ينتهى أبوها من قضاء حاجته فى الكنيف مع كحة وسعال وبصاق بلغم كثيف من السيجارة التى أشعلها على الريق، تكون كوبة الشاى الخمسينة فى انتظاره على تلك الترابيزة التى تتخلخل وتهتز بمجرد لمسها ولهذا فقد دربوا جميعا على اعتقالها فى اللحظة المناسبة قبل أن يتدلدق، ما عليها من سوائل. فى سرعة يلبس الأسطى محروس بنطلونه وقميصه، يجلس على الكنبة يشرب كوبة الشاى مع سيجارة ثانية ثم يتوكل على الله إلى بيت المعلم دياب صاحب التاكسى، يتسلم منه السيارة ويمضى إلى طريق الأوتوستراد أو إلى طريق القلعة داعيا الله أن يرزقه بإيجارها ومن فوقه رزق العيال السبعة الذين صممت أمهم على تعليمهم فى المدارس: هبة فى دبلوم تجارة، محمد فى الإعدادية، مها فى أولى إعدادى، سيد فى الابتدائية، وحسان فى القبول، ورشا وتوأمها خليل فى الرابعة من عمرهما.

بعد نزوله مباشرة تنزل أم هبة فى أعقابه حاملة مخلاة من الكتان فى قعرها حلة صغيرة، تجرى إلى الفرن البعيد فى أعماق الجبل، تقف فى الطابور لمدة تقرب من نصف ساعة، تشترى فى المتوسط خمسين رغيفا بواقع رغيفين لكل فرد من عائلتها فى ثلاث طقات يومية، لكن الفرن لا يقبل ولا جمهور الطابور يقبل أن يعطيها كل هذا العدد من الأرغفة، يكفيها على الأكثر عشرين رغيفا، مما يضطرها إلى إخفائها فى المخلاة والتوجه إلى فرن آخر تأخذ منه ما تستطيع ثم إلى بائع الفول والطعمية الواقف بعربته عند مزلقان منشية ناصر، تشترى بخمسة جنيهات ما يغطى قعر الحلة من الفول المدمس، وطعمية بجنيهين، وكيسا من الطرشى، حزمتين من البصل الأخضر ومثلهما من الجرجير والبقدونس، فإن فاضت فى يدها فلوس- وقلما تفيض- حودت على بائع الخضراوات تشترى قليلا من حبات الطماطم أو البطاطس.

حين تصل إلى البيت يكون العيال قد استيقظوا جميعا وقامت هبة بغسل وجوههم وإلباسهم ملابس المدرسة ورتبت لكل واحد حقيبة كتبه وكراريسه، ثم فرشت الكليم على الأرض ووضعت فوقه الطبلية فيتحلقوها فى انتظار أمهم التى ما إن تدخل حتى تتلقاها ابنتها هبة، تأخذ منها الأرغفة فتفردها على الطبلية، والحلة فتفرغها فى طبق عريض مفلطح وتدهك الفول بالزيت والكمون، تدلق الطرشى فى الطبسة، توزع أقراص الطعمية على كل واحد قرصين تتربع أم هبة بينهم، ينزلون على الرغفان والأطباق حتتك بتتك، فى ظرف خمس دقائق على الأكثر يكون الطبق قد مسح تماما كأنه غسل بمنظف كيميائى، ولم يبق من الأرغفة إلا فتافيت.. بحرص شديد تلمها أم هبة تصرها فى هدمة قديمة فى بطانة من بقايا أوراق الخس والفجل لتبقى طرية إلى الغداء، فإن نشفت قليلا صعدت بها إلى الدجاج، فإن نشفت تماما ادخرتها لتفتها فى مرق من مخلفات الدجاج أو البط الذى تربيه لتبيعه لا لتأكله.

يذهب الجميع إلى مدارسهم، تبقى أم هبة وحدها مع رشا وخليل، تقوم إلى ماكينة الخياطة، تنهمك فى قص وترقيع ورفى وتركيب زرايز وإصلاح عراو، إلى أن يفى زوجها الأسطى محروس بوعده، أن يمر عليها فى وسط النهار ليترك لها فلوساً تجهز بها غداء للعيال، حيث يكون الله قد بارك فى استفتاحه وتجمع فى حصالته من عملولته ما يستحق أن يفوت به على البيت ما يعطيه لها تتصرف فى حدوده بشرط أن يكون كافيا للإشباع مهما كانت الحدود على الغد. إنها شاطرة فى تلفيق الطبخات من اللاشىء، شوية خبيزة، طبق بصارة، شوربة عدس أصفر تفت فيه بقايا الخبز الناشف، فول نابت، بطاطس مقلية أو مسلوقة ومدهوكة بالملح، المهم إن العيال لابد أن يشبعوا، ولن يشبعوا إلا بالخبز وحده، أما مصاريف العيال فى المدارس فإنها متكفلة بنصفها على الأقل بفضل تربية الدجاج وماكينة الخياطة هذه التى اشترتها- بمكسبها من بيع البيض والدجاج- قديمة من سوق الجمعة فى الإمام الشافعى.

-2-

أزمة الخبز أرغمتها على النزول من بيتها مبكرا، ربما قبل أذان الفجر بقليل لعلها تكون أول واقف فى الطابور الذى يستطيل كل دقيقة فيتلولب ويتكور على نفسه توسيعا للطريق، والجميع فى حالة من التحفز الشرس ضد كل من يحاول سرقة دور غيره بأى لون من التلاعب، سرعان ما تلمع أنصال السكاكين والسنج والسيوف والنبابيت، الملل فى طول الوقوف كفيل وحده بخنق الصدور وتضييق الخلق، فما أسرع ما يقوم القتال بين الأقوياء من البلطجية المأجورين لحساب من يبيعون الخبز على الطرقات بأضعاف ثمنه. فى غمرة احتدام القتال وتدفق الدماء تتسلل أم هبة منسلخة من كتلة المرتاعين الذين التهوا عن كل شىء وراحوا يصوتون ويجاهدون للابتعاد عن مرمى السيوف ونغز المطاوى، تقف إلى بعيد تنتظر انفضاض المعركة الدامية من تلقاء نفسها أو بمجئ البوليس، ربما استطاعت انتهاز فرصة الغاغة وبعثرة الطابور فتتسلل لتحتل مكان من كان فى المقدمة، وربما وجدت أن الوقت سيطول حتى يستأنف البيع فتهرول إلى فرن آخر فى أعماق المقطم، أو تضطر إلى الشراء من الباعة السريحة على الطرقات إذا وجدت أن الوقت أزف ولابد من عودتها فورا إلى العيال.. حينئذ تسمع الحارة كلها صوت ولولتها وصب لعناتها على كل مفتر جعلها تشترى ربع ما تحتاجه من أرغفة بالفلوس التى من المقرر أن تشترى بها كل الأرغفة، غير مقتنعة بأن الرغيف أبو ربع جنيه مميز عن الرغيف أبو شلن.

-3-

نسوان حارتنا يحسدون أم هبة على شطارتها، فى حين يحسد الرجال الأسطى محروس السواق على هذه المرأة الجدعة التى لولاها ما استطاع أن يعيش فى هذا البلد الذى انقلبت حكومته على شعبه فتركته يأكل نفسه بعيدا عن مخادعها الآمنة. لكن حسد النسوان فى حارة الوطاويط- لأم هبة بالذات- غير مؤذ، إذ إننا جميعا نعرف البير وغطاه، يحكمنا المثل الدائر: لا تعايرنى ولا أعايرك الهم طايلنى وطايلك، وكذلك: على إيه تحسدنى وأحسدك دا اللى يسعدنى يسعدك. عين الحسود ينكسر سمها بمجرد رؤيتها للولية أم هبة وهى قادمة من السوق تتصبب عرقا ولأنها طوال السكة تنادى وهى ماشية على جاراتها لتنبههن إلى أخبار مهمة: يا بنت يا هنية قولى لامك التموين نزل الدكان. يا أم دقدش طابور العيش راق شوية.. الحقى يا فكيهة حنفية الصدقة مفتوحة ومغرقة الأرض.

من غرائب حارتنا أن الواحدة من نسوانها بعد أن تغرز عينيها فى حمولة أم هبة مغمغمة من بين أسنانها: «آه منك يا أروبة يا أم قلب حامى!»، تستدرك فى الحال بنبرة إعجاب: «والنبى جدعة! المعايش عايزة كده! كان الله فى عونك عندك زربة عيال!». إلا أن امرأة أخرى قد تردد نفس العبارة ثم تضيف إليها فى شىء كالعتاب أو الاحتجاج: «بس يعنى كان ضرورى يا أم هبة توديهم كلهم المدارس؟! ما تمديش رجليكى على قد لحافك ليه؟ ولا يعنى أقرع ونزهى؟!». غير أننا فى الحارة نعرف أن من تتقول مثل هذا الكلام تشعر بالغيرة من أم هبة خاصة أن الكثيرين من رجال حارتنا يعايرون زوجاتهم بأم هبة، وفى نفس الوقت يعلقون دائما بقولهم: «بس هو كمان جدع ويستاهلها!». ذلك أن الأسطى محروس السواق- وهو أقدم ساكن فى هذه الحارة أيام كانت منشية ناصر كلها مجرد عشش على أرض بوضع اليد- لم يكن مرحبا بخلفة العيال من الأساس، وساق على أم هبة طوب الأرض من الأهل والجيران لإقناعها بتركيب اللولب وتأجيل الخلفة حتى يعرف دخله من خرجه إلا أنها قالت لهم: «حد يطول يرزقه ربنا بالعيال بس تيجى العيال ورزقها فى كعبها!». إنما الأسطى محروس طول عمره حكيم، إنه من أوائل من جاء وا إلى هذه المنطقة الجبلية الصحراوية ووضعوا يدهم على قطع بنوا فوقها أعشاشا، فلما تكاثر الوافدون ولم يعد أحد يستطيع وضع يده على أرض جديدة ساومه أحد التجار على القطعة المقامة فوقها عشته: أن يبنى التاجر فوقها بيتا من طابقين ويعطى لمحروس شقة فى الدور الأرضى يتملكها وأن يكون له حق الانتفاع بالسطح لزوم تربية الفراخ والبط والأرانب ونشر الغسيل والقعاد فى الطراوة.

-4-

ياله من يوم لن تنساه حارتنا ولا منشية ناصر كلها: أم هبة وراءها عيال عندهم امتحانات، لابد أن يفطروا فطورا مشبعا قبل ذهابهم إلى المدرسة. نزلت من بيتها ومؤذن الفجر يهتف فى ميكروفون يزلزل رقود الموتى: «الصلاة خير من النوم». قالت وهى تهرول فى الحارة بصوت عال تعشمت أن يصل إلى السماء: «عدم المؤاخذة يا رب! العيش كمان خير من الصلاة، الصلاة ملحوق عليها لكن متأخذنيش يا رب الفرن مش ملحوق عليه». فى ذلك اليوم- كعادتى كل يوم- خرجت بعدها بقليل أشوف السبوبة: نصبة الشاى التى أقف بها جنب مدخل سوق منشية ناصر قرب المزلقان. هى ذهبت إلى الفرن، وأنا حودت على البقال أشترى المونة. حينما عدت إلى النصبة، وهى عبارة عن عربة يد أضع فى جوفها العدة وأغطيها بالشمع وأحزمها بجنزير وقفل أشبكه فى تلك الحديدة الغائصة فى الأرض حيث كان غفير المزلقان- أيام كان القطار الحربى شغالا- يشبك فيها طرف الجنزير الذى يغلق به المزلقان حتى يمنع المرور إلى أن يفوت القطار ما كدت أشعل وابور الجاز وأرص العدة حتى لمحت أم هبة قادمة تهرول من قلب السوق، تحمل على رأسها حلة الفول، وفى يمناها المخلاة متخمة بالأرغفة الساخنة، وفى يسراها مخلاة أخرى من خيوط شبكية امتلأت بالطماطم والخضراوات. كانت ترتدى جلبابا صعيديا بنقشة محتشمة، وفى قدميها شبشب زنوبة يطرقع فى كعبيها، وجسدها الملآن المبطرخ يرتج تحت الجلباب. صبحت علىّ.. يسعد صباحك يا أم هبة نهارنا فل بإذن الله. من وراء السوق ظهرت دبابة كبيرة مسرعة، لا أعرف اسمها، إنما هى تشبه الدبابة، عجلاتها الحديدية محاطة بسير حديدى ذى أسنان حديدية قاطعة كأسنان المحاريث تخلف الأرض من ورائها صفين من الحفر كالجروح الغائرة، لعلها تابعة لإحدى شركات المقاولات، كانت تمشى على الأرض المترية غير المرصوفة الفاصلة بين طريق الأوتوستراد ومنشية ناصر، لعلها كانت ذاهبة إلى مكان ما فى الجبل الأحمر، ولحظة أن مالت نحو جسر السكة الحديد لتعبر المزلقان، كان هناك من هو أكثر عجلة من أم هبة الملهوفة على العودة إلى عيالها بأسرع وقت ممكن لتفطرهم قبل توجههم إلى لجان الامتحانات، هذا المتعجل داس على طرف شبشب أم هبة من الخلف دون أن يقصد طبعا، فانكفأت على بوزها منطرحة على الأرض فوق بطنها وقد غرق وجهها فى دم مخلوط بالفول المدمس، فى نفس البرهة مرت الدبابة فوق ذراعها اليسرى فبترته تماما ثم عبرت المزلقان كأن شيئا لم يكن. الجميع صوت ولطم خديه معتقدا بأن الولية لابد قد ماتت موتا محققاً، وها هو ذراعها المفتتة مع الحلة المنكفأة مع الأرغفة المبعثرة وحبات الطماطم والجرجير والطرشى كل ذلك على شطآن بحيرة من الدم. لكننا فوجئنا- أى وحق جلال الله - بأم هبة - ربما من حلاوة الروح- قد استجمعت جسدها وهبت واقفة دون أن تقطن إلى أنها فقدت ذراعها مرمية على مقربة منها كبلطية ميتة، راحت بذراعها اليمنى تجمع الأرغفة وهى تصيح فى فجيعة تلفظ أنفاسها الأخيرة: «أكل العيال يا خرابى يا مصيبتى السودة أكل العيال راح! ساعدونى يا خلق! أكل العيال طار! أكل الـ.. عيا..»، وسقطت على الأرض فى غيبوبة، وذراعها الباقية تحضن ما جمعته من أرغفة ■